**دريدا : التفكيك بما هو فلسفة.**

التفكيكDéconstructions كما أسسه جاك دريدا Jacques DERRIDAهو بمثابة مساءلة للأصل و للتخوم، إنه لقاء تناصي . اللقاء الذي لم يكن يرى في محاولته إلا امتداد لأصل معنى التفكيك عينه. إذ لا يجب فهم التفكيك باعتباره نفيا أو عدما أو فكا ميكانيكيا بل ينبغي إدراكه باعتباره تحليلا لبنى مترسبة و المشكلة لعناصر تفكيرنا المميز لنا، فالاستدلالية التي تقوم عليها طريقة تفكيرنا عبر اللغة أي عبر مجموع العناصر المحددة بدورها انتمائنا إلى تاريخ الفلسفة و لا يمكن تحديد معنى التفكيك بعيدا عن بين-النصية Inter-textualité و ذلك من خلال العديد من الدلالات و المعاني الممكنة التي يحملها معنى التفكيك و التي سنأتي على ذكرها، إذ سبق و أن كانت كلمة تفكيك متداولة من حيث الاستعمال و لكن بصورة جد نادرة في اللغة الفرنسية و استعملها أيضا "هيدغر"(م) الذي تحدث بدوره عن التدمير، التفكيك باعتباره تدميرا DestruKtion ثم وظفها "سيغموند فرويد" S .Freud للدلالة على الذوبان و الانحلال Dissociation. لكن تفكيك "دريدا" يبتعد تماما عن هذه الاستعمالات على الرغم من اعترافه بأن تفكيكه هو مجرد امتداد لكل هذه الممارسات، لهذا نجده يقترح تحديده باعتباره التقاء-تناصي une rencontre-textuelle إنه إي التفكيك مفترق الطرق، فرق و جمع في آن واحد و الحامل للدلالات عديدة. إن كلمة التفكيك Déconstruction تعني التفكك Décomposer و مفكك Démonter و التحقق Vérifier، التفكيك هو أولا مرتبط بالنسق Système إنه التفكير في الأنساق و في انغلاقها و في انفتاحها و هو بالإضافة إلى ذلك نوعا من الترجمة الفاعلة و التحويرية أي تقوم بتحويل الكلمة إلى كلمة أخرى، تنقلها و تغيرها إلى لغة أخرى، إن التفكيك هو الاجتياز و العبور و لقد اعتقد هيدغر بأهمية أو بضرورة تفكيك الانطولوجيا و لا يعني أبدا النفي أو التدمير الأنطولوجي و إنما هو بمثابة تحليل البنية الأتطولوجية للتراث الفلسفي و له ميزة أنطولوجية إثباتية في جوهرها و تأكيدية لانافية. التفكيك غير مرتبط بالنفي في معناه العدمي . و لكنه ممثل على الدوام نفيا بالنسبة للإيجاب كأن نقول مثلا Dé-construction فاللازمة الأولى Dé تحمل دلالة النفي و اللازمة الثانية Construction تحمل دلالة التشييد و البناء و عليه يغدو التفكيك اللا-ممكنIm-possible، الأمر لا يتعلق طبعا بالانسحاب و إنما بضرورة تقديم إمكانات أخرى لتفكير الممكن ذاته أي لتفكير الحقيقة و ليس في الوجود فقط، فليس الوجود هو ما ضاع منا و إنما الحقيقة. لن يكون التفكيك أحادي اللغة و حتى إن سلمنا بوجوده فإنه سيبقى يمارس تعدده اللغوي، لهذا بفضل دريدا كتابته في الجمع، تفكيكات، Déconstructions و إذا كان التفكيك موجود فإنه سيكون من الواجب القول دائما و بحسب جهة الممكن غير قابلة للاختزال لأنه ممكن ممكن اللاممكن Le possible de l’impossible possible إذ قدر التفكيك التكلم داخل لغات عديدة و بأن يكون في كل لحظة من لحظاته مرتبطا بالقراءة المنجزة، ذلك لأن كل منا يفضل الكتابة عن أهوائه ومشاعره و تجاربه انطلاقا من حدود و حقول و جذور لغته القومية الخاصة، إن التفكيك يقول دريدا هو نتاج عبقرية اللغة، لقد أوجدته اللغة، **"لقد وجدت نفسي محاصرا بطريقة منفعلة فاعلة داخل ثقافة فرنسية أحادية اللغة، لكن في وسط مغاربي، عربي، إسلامي، كما يقال أحيانا مجازفة "الجزائر"** و لقد أمكنتني قراءتي لأعمال جاك دريدا بإحصاء هذا الجمع من التفكيك بالشكل التالي:

1. ليس التفكيك هدما و لا تدميرا عدمي لأنه لا يقر بوجود شيء ما قابل للتدمير فالتفكيك ليس بشيء و أن حدث و أن صار كذلك فإنه لن يكون أكثر من فكر وجود الميتافيزيقا، إذ ينجز تفسيرا بسيادة الوجود أو ماهية الفكر بما هو كائن و مثل هذا التفسير لا يمكنه أن يكون مجرد تدمير سلبي إذ ثمة جدلا و ثمة تعارضا سواء أكان سلبيا أو إيجابيا و أن أي قول يجعل من التفكيك مجرد تفكيكا سلبيا هو بمثابة إعادة كتابة داخل صيرورة ضمن- الميتافيزيقية intra-métaphysique .
2. التفكيك حركة إثباتيه و لا يقصد بالضرورة الإثبات بالإيجاب، و إنما هو إثبات فعال منتج للمعنى و لا يكتفي بالبحث عن المعنى مثلما هو عليه الشأن لدى الهيرمينوطيقيون الذين يفضلون التسليم بوجوده معطى في النص، في الوجود و هو دائما في حالة ضياع و فقد و ما على المؤول إلا البحث عنه و الكشف عن حقيقته، غير أن التفكيك لا يسلم على الإطلاق بوجود معنى معطى و إنما يقر بضرورة إنتاجه من قبل قارئ فاعل لا متوقع.
3. كلمة التفكيك موجودة في اللغة الفرنسية و على الرغم من قلة استعمالها إلا أنها حدد لها موضعا في قاموس ليتري Littré و التي تلعب دورا في العديد من اللوائح المعرفية مثل الألسنية أو النحوية و أيضا الآلية أو التقنية و الكلمة تحيل في بداية الأمر عما تبدو عليه في القاموس إنها تعكس فكرة البنية Structure فحينما استخدمت يقول جاك دريدا الكلمة كانت البنيوية لحظتها المهيمنة على الفكر الغربي اعتقد في آن معا ان التفكيك هو بنيوي و ضد بنيوي.
4. حول انغلاق و انفتاح النسق يعكس التفكيك فعالية الترجمة المستخدمة من قبل "هيدغر" في تدميره للانطولوجيا الكلاسيكية، لكن التفكيك يحلل أيضا بنية الانطولوجيا ذاتها و هو ليس مجرد تحليل نظري و إنما هو في الوقت ذاته كتابة أخرى لسؤال الوجود أو المعنى، فلقد ارتبط هدف التفكيك لدى "هيدغر" بجعل الوجود لا يحضر أمامنا كوجود معطى مسلم به و كتب "دريدا "عن ذلك قائلا: "إن "هيدغر" لا يتركنا نقرأ كلمة "وجود" إلا تحت سلب الشطب Rature négative لا يكون بالرغم من ذلك دليلا سالبا و ببساطة، عن ذلك الشطب هو الكتابة الأخيرة لعصر ما فتحت معالمها ينمحي حضور المدلول المتعالي بالرغم من انه يظل قابلا للقراءة.
5. ليس التفكيك ببساطة عملية فك بنية معمارية، إنه أيضا السؤال عن التأسيس، السؤال حول العلاقة بين التأسيس و ما هو مؤسس و هو في الوقت ذاته سؤال حول انغلاق البنية، سؤال عن المعمار الفلسفي ككل لا في ما يتعلق بهذا البناء أو ذاك. لكنه يجري حول الفكرة المعمارية للنسق و إذا كنت قد قلت معمارية يقول دريدا فإنني أشير هنا إلى تهديد "كانط" الذي لا يستنفذ كل معاني المعمارية على الرغم من أن تحديدها يهيمن على وجه الخصوص، فالمعمار هو فن النسق .إن التفكيك يفكك الأنظمة و الأنساق، لا يدعي إسقاطها أو تدميرها أو عدمها. و إنما يريد الانفتاح على إمكانات التنظيم و التركيب، إمكانات الوجود معا التي ليست نسقيه بالضرورة، بالمعنى الدقيق الذي تمنحه الفلسفة لما هو نسقي، إن التفكير بهذا المعنى هو تفكير معين حول النسق، حول انغلاق و انفتاح النسق، فثمة نسق و ثمة نص و في النص ثمة شقوق أو منابع التي تنفلت من هيمنة الخطاب النسقي عليها. هنا تكمن أهمية وجود تأويل لا متناهي فعال منخرط في "ميكرولوجية السلخ" Micrologie du scalpé عنيف و وفي في آن معا.
6. ليس التفكيك نقدا و إنما يشتغل على تفكيك النقد ذاته فعند محاولة التفكير فيما تعنيه تاريخيا سيادة اللحظة النقدية بالمعنى الكانطي يغدو التفكيك بعيدا عن النقد ليقترب أكثر من لفظ آخر موجود في اللغة الألمانية و المستعمل من قبل هيدغر و فرويد و هو اللفظ Abbau الهدم الهيدغيري هو نوع من العودة إلى أصول التفكير الغربي للتمكن من استعادة المنسي و استرداد أسس الميتافيزيقا نفسها لكن التفكيك يبدأ حينما يكف هيدغر على الاشتغال حيثما تكون الكينونة قيد الشطب.
7. التفكيك هو أيضا طريقة في الكتابة و الارتقاء لنص جديد و لم يكن أبدا مسحا كليا للطاولة و لهذا نجده يتميز عن الشك و عن النقد، ذلك لأن النقد ينجز دوما من قبل الحكم سيادة الحكم أو التثمين النقدي.
8. التفكيك إستراتيجية لا تمارس هدما سلبيا و لا خلخلة. تفكك المعاني التي تستمد أصلها من اللوغوس و يعلن التفكيك عن نفسه لأنه عملية تقوم على تحليل جسم ما بإرجاعه إلى عناصره المكونة له، إنه تفكيك جيو-مواقعي ينقب و يحفر و ينحت طبقات الأرض التي يقف عندها ليقوم بعد ذلك بمسح توبوغرافي فالتفكيك ينحت الطبقات التحتية متوجها نحو عمق الأعماق، التي ظلت متوارية كل تاريخ الميتافيزيقا، و الخلخلة عملية حفر عمودية للطريق **Frayage** و يعتبر دريدا أول من أكد على أهميتها من حيث كونها تحمل القدرة الفائقة على تفتيت النزعة المركزية للعقل الغربي و يقيم اعتراضا جذريا على امتياز الآن-الحاضر Le maintenant-présent فالتفكيك إذا إستراتيجية عامة تمارس على النص باعتباره فضاء يدعو القارئ إلى الكشف عما يحويه من قوى عمل، قوى هي في الوقت ذاته تفكيك للنص لأن كل نص بالنسبة لدريدا يحمل عناصر تفجيره من الداخل، باعتباره بنية غير منسجمة كثيرا ما تلحق به ميتافيزيقا الحضور شقوقا و تصدعات، إنه أي التفكيك بمثابة الكشف عن توترات النص وشقوقه، كي يتمكن بدوره من لأم جسده و هذا ما يميز الإستراتيجية فهي من جهة قلب Renversement للثنائيات الميتافيزيقية و من جهة أخرى بناء Construction لمتعارضات جديدة و التفكيك يغدو متعذرا عندما يمتنع النص عن القراءة نتيجة عدم حمله للتوترات و التصدعات.
9. إن ما يفعله كل من تشومي Tschumi و آيزنمان "Eisenman " تحت اسم المعمارية المفككة Architecture déconstructive هو التأكيد الأكثر فعالية و الأكثر حدة للتفكيك. و عليه لا ينبغي ان يكون مرتبطا بتحليل الخطاب و المقولات الفلسفية أو المفاهيم السيميائية و إنما عليه (التفكيك) مهاجمة منطقية المؤسسات و البنى الاجتماعية و السياسية و التقاليد المغلقة و الأكثر تزمتا و من وجهة النظر هذه فإن أي تفكيك فاعل في ذاته عليه أن يمر عبر المعمارية. عبر هذا التنقل الأكثر صعوبة للمعمار مع السلطة السياسية، السلطة الثقافية و مع تعليم المعار. فكل فلسفة و كل الميتافيزيقا الغربية تجد نفسها منخرطة كلية في المعمارية التي لم تكن مجرد حركة تنقل الصخور التي تتجمع في جسدها كل التأويلات السياسية الدينية الثقافية للمجتمع. و بالتساوق فإن التفكيك بإمكانه أن يكون تفكيكا معماريا

10. غالبا ما تم تقد التفكيك باعتباره مجرد نفي لبرانية اللغة و المؤدي بالكل إلى جوانية اللغة فعندما كتبت يقول دريدا "انه ليس ثمة شيء خارج النص" (Il n’y a rien hors texte) تم تأويل هذه العبارة على أنها تؤكد بأنه "ليس ثمة شيء خارج اللغة" في حين كنت أقصد خلاف ذلك فالتفكيك بدأ أولا من مواقع تفكيك مركزية العقل Logocentrisme و مركزية الصوت Phonocentrisme كما حاولت بعد ذلك القيام بإزاحة تجربة التحرير، و التخلص من وصاية النموذج ألألسني الذي كان مهيمنا بشكل صارخ في الستينيات فالأمر إذا كان يتعلق لدى هؤلاء المؤولين للعبارة بنوع من الحقد القديم تم تفعيله تحت غطاء إيديولوجي و سياسي، محاولين جعل التفكيك يقول خلاف ما يريد قوله، طبعا كان لزاما علي و لأجل تعيميم استراتيجية تفكيك مركزية العقل و تفكيك النموذج ألألسني أن أقوم بتحويل مفهوم النص بدل اللغة إذ ليس ثمة حدودا لا خارجا للنص فهو أكثر من أن يكون لغة و حينا حاول "ميشال فوكو"Michel FOUCAULT تعريف التفكيك جعل منه مجرّد فضاء نصي مختزلا بذلك مفهوم النص إلى مجرد مفهوم للكتابة و إلى كل ما تم كتابته على الورق. طبعا كانت قراءته خاطئة و متسرعة. الكل اتهم التفكيك بأنه مشروع أحمق فحاولوا اختزاله و حصره داخل فضاء الكتابة لكن ثمة بالنسبة إلي ما هو خارج النص و كل شيء يبدأ من هنا. و لا ينعت دريدا هذا الواقع بصورة ساذجة و سهلة إذ كثيرا ما تم حمل لفظ الواقع بجملة من الافتراضات و المقولات الميتافيزيقية، ف " ما وراء اللغة ثمة نص" au-delà du langage il y a un texte نعم يقول دريدا أعترف بأن الاختلاف وارد عند كل قراءة تأويلية لأن المسألة مرتبطة كلية بمدى تمكننا من فهم الدلالة، فإن هذا "الوجود ما وراء" être au-delàهو العلاقة الجوهرية للغة بالنص، بالنصوص و بالآثار Les traces و الذي أنعته بالوجود ما وراء اللغة و سيكون بالنسبة إلى نسيج الآثار Trame des traces و النصوص بالمعنى الأكثر عموما.

11. يمارس التفكيك عل النصوص و في الغالب على النصوص المرتبطة بتاريخ الفلسفة و بالتحديد يرتكز عمل المفكك عل قلب ثم على تحديد الزوج التراتبي في صلب ذلك الذي جعله منذ أصل الفلسفة من الواقع أولي عن الخيال Fiction إن التفكيك ممارسة الكتابة المنجزة دائما على هامش النصوص. إنه ثانويا بصورة جذرية، و الرسالة المرافقة له على الدوام هو أن الكل ثانويا و ليس ثمة ما هو أوليا فلا يوجد إلا علامات العلامة.

12. في الواقع عندما نرى ما يفعله كل من "تشومي" و "آيزنمان" فإننا نرى الأمور بكيفية مخالفة تماما فهما لا ينجزان تدميرا فحسب و إنما بناءً أيضا فهما يشيدان المعمار في علاقته الكلية بأنماط أخرى من الكتابة السينما -توغرافية السردية و الأشكال الأكثر تعقيدا من السردية الأدبية لهذا أجدني يقول دريدا "أميل أكثر إلى محاولة جعل من هذه التجربة المعمارية الجسارة و الجرأة للفعالية و التفكيك الأكثر إدهاشا و روعة"

13. يقتضي الاشتغال على إستراتيجية التفكيك ينبغي قبل كل شيء إعادة بناء إمكانية التفكيك ذاته، فالتفكيك في بدايته ليس مجرد تفكيك منطقي و الرفض المنطقي للتعارض، إن التفكيك يصدر عن النظام المنطقي عينه، فهو ليس مجرد رفض للتعارض.

14. إن التفكيك إما أن يكون اكتشافا أو لا يكون، فهو لا يرضى أن لا يكون، و لا يطمئن بالإجراءات المنهجية، يشق طريقه، يسير و يوسم معالمه كتابة ليست أبدا منجزة Performatif، إنها تنتج قواعد اتفاق أخرى و لأجل إنجاز آخر و لا يستقر أبدا عند حدود الطمأنينة النظرية للتعارض البسيط بين المنجاز و المقرر Constatif و تلتزم انطلاقته بتأكيد و إثبات هذا و ذلك من خلال ربطها بمستقبل الحدث. و لا يمكن للتفكيك فعل ذلك إلا و هو يفكك بنية مفاهيمه و تأسيسه للاكتشاف Invention. التفكيك إذا اكتشاف، إنه اكتشاف الاكتشاف ذاته، هذا ما يكتشفه و هو لا يكتشف خارج ما تم اكتشافه إذ ليس ثمة ما هو خارج الاكتشاف، و في الاكتشاف ثمة إمكان لاكتشاف آخر، فهو على سبيل المثال يعيد اكتشاف الحرف lettre في توهجه و ثورانه ، "إن الحضور بما هو مثقل بمدلولات تظهر عبر ال"لا-حضور" و معجميا يندفع الحرف كحرف خامل، فإذا هو الحرف النشط المعبر عن هذا الحضور و تلك مفارقة ميتافيزيقية في اللغة المتورطة في التراث المفهومي و الفلسفي".